الفصل الثالث والعشرون

المغامرات مع «نعامة الطين»

في اليوم الأول من بداية رحلتنا دخل عليَّ على رؤوس أصابعه إلى غرفة نومي في الثالثة صباحاً وهمس في أذني لأنهض؛ لأن كل شيء جاهز. ولم أكد أتبعه إلى الخارج حتى نسي مراعاته للخان النائم وصرخ كبوق الضباب عبر الفناء الهادئ: «يا إبراهيم: أسرع».

ومن الطرف الآخر للفناء وصلنا صوت البصاق والهسيس والنفح والقعقعة، لأن سيارتنا / الفورد / قد دبّت فيها الحياة بعد صرخات علي، وتحركت على عجلاتها المتمايلة كالسكران فوق الأرض الوعرة. لم نتمكن من رؤية أي شيء منها في الظلام وبعد فترة ظهر نور أصفر خافت خفق مؤقتاً ببريق أشدّ عندما ارتطمت السيارة بالأحجار الكبيرة. وبعد صرير طويل وقفت «مركبة الصحراء» أمامنا. وترجل السائق الحافي القدمين والملفّح الرأس والرقبة بمحاولة جرئية من الوقار على الرغم من عرجه الظاهر، ولكنه لسوء الحظ أغلق الباب خلفه بشدة جعلته يخرج من مفصّلاته.

وقال علي: «إبراهيم» وبهذه الكلمة الوحيدة قدم لي السائق. ونزع علي ثلاثة أمتار من الشال الصوفي السميك عن رأسه ونظر إلي بعينه الوحيدة الباقية. يا

لهما من ندّين متكافئين: سيارة / الفورد / القديمة تلك وسائقها الصغير الأعرج الأعور ذي الوجه المغطى بالبثور!

وتصنعت الابتسام ولكني في السر تصورت هياكلنا العظمية (علي وإبراهيم وأنا) تتعرى من اللحم تحت ركام سيارتنا في مكان ما من الصحرء. وفي الساعة الثالثة والنصف صباحاً اتخذنا طريقنا إلى البرية.

في الأراضي الجافة قطعنا حوالي مئتي ميل في اليوم. لم نتبع لا طرق القوافل ولا آثار الجمال، بل سرنا حسب إرشادات العرب الذين قابلناهم مصادفة، والذين تعلق بعضهم مؤقتاً بالسيارة لإرشادنا. وانتهت معرفة علي بالأرض بمجرد تجاوزنا أسواق حلب. وكلما تجرأت على لومه تخلص من ذلك بابتسامة ساذجة وبقوله بأنه أحبني من كل قلبه، ولم يكن بإمكانه أن يدعني أسافر وحيداً.

لقد أحبّني بالفعل ولكنه في نفس الوقت أعد نفسه لرحلة مرح. احترامه لي حمله مسؤولية إبراهيم وسيارة / الفورد /. والله وحده يعلم كم ربح من الاثنين.

قضينا ليالي عديدة في العراء، ولكننا أحياناً التجأنا إلى مخيمات البدو. وجدنا هاجم باشا قرب نهر الخابور. كان الشيخ مريضاً بذات الرئة الحادة التي تعرض لها في مستنقعات سهل الفرات. لم أستطع البقاء عنده أكثر من بضع ساعات، سرنا بعدها باتجاه دير الزور. أرسلت طبيباً من أول مركز عسكري فرنسي فأمر بنقل هاجم باشا إلىحلب ولكنه مات هناك بعد أسبوعين.

في هذه المنطقة الصحراوية يوجد جسر واحد يستطيع المرء العبور فوقه إلى الجانب الشمالي الشرقي من النهر. وبعد مسيرة ثمانية أيام وجدنا أنفسنا في أقصى نقطة في الجزيرة ليست بعيدة عن الحدود التركية، وهنا تجولنا لعدة أيام بين القبائل البدوية الصغيرة. مررنا بقرى قذرة متفرقة، بيوت فلاحيها الطينية مخروطية عالية ومعظم سكانها من الجركس والأكراد. ولكننا تعلمنا أن نتجنبهم لأن زعماءهم وموظفيهم المتحمسين كثيراً ما أعاقوا تقدمنا؛ إذ إنهم احتجزوا جوازات سفرنا وجعلونا ننتظر حتى يتصلوا هاتفياً أو برقياً بحلب أو الرقة أو مثل

هذه المراكز البعيدة للاستفسار عنا، وأحياناً استغرقت العملية عدة أيام قبل أن نتمكن من الرحيل.

وعلمتنا الخبرة أن نبتعد عن القرى، وهذا ما سبب الانفعال الغريب لدى رجال الدرك. وذات مرة ـ قرب الحسكة ـ تعقبتنا سرية من الدرك، ولكن أفضل جيادهم لم يستطع اللحاق بسيارتنا القديمة، فأطلقوا علينا الرصاص دون أي نتيجة سوى أن هيكل سيارتنا أصيب بعدة ثقوب رصاص كتذكار.

وعندما وصلنا تقريباً إلىهدف رحلتنا الرئيسي وهو بدوطيّ أصبنا بحادث مشؤوم. احتجزتنا سيارة فرنسية مزودة برشاش وأخذتنا إلى القلعة المبنية حديثاً قرب مدينة نصيبين التركية المحصنة. قال القائد الفرنسي بإيجاز إنه نظراً للقلاقل المسلحة فإن منطقة بدو طيّ ليست مأمونة، وإن حكومته لا تستطيع أن تكون مسؤولة عن سلامة الأجانب فيها وأن علينا العودة إلى جسر الخابور ــ مسافة نحومئة وخمسين ميلاً لو سرنا بخط مستقيم. وبالإضافة إلى ذلك أمرنا بمرافقة جنديين سوريين في سيارتنا المكتظة سلفاً. كانت المقابلة قصيرة وجميلة ولم يكن بإمكاننا سوى الخضوع.

في سيارتنا المتداعية تجمع الآن سبعة أشخاص (إبراهيم وعلي ورفيقان بدويان وجنديان وأنا) وغزال وكلب صيد ودجاجتان. احتشدنا كالسردين: اضطررنا للتمسك بأي شيء، ومنعت أيدينا الثلاثة عشر المتشابكة السيارة من الانفراط (كانت يد إبراهيم الرابعة عشر تمسك بمقود السيارة) كما لم يكن باستطاعة أي من الركاب السقوط دون معرفة الآخرين.

وفجأة توقفت السيارة. عندما فتح علي قبضته «المتجمدة»، تحرر الجميع آلياً من العناق الجماعي وسقطنا جميعاً مع متاعنا. وبعد جمع الحقائب والصناديق والعلب والبنادق والحيوانات المتناثرة التفتنا نحو السيارة.

انتزع علي المقاعد وكل شيء تحتها ليس مثبتاًبالبراغي أو مسامير البرشام. وفكّ البدويان شمعات الاحتراق وفحصاها، وانتزعا الأسلاك لأن كل العالم مثل

الأشرطة التي تخرج من قميص المشعوذ الصيني. إبراهيم وحده احتفظ بما يشبه الهدوء. تربّع على الأرض، واتكأ على مقدمة السيارة، وأخذ يداعب الخرزات الزرقاء المربوطة حول غطاء مبرد[1] السيارة. سألت إبراهيم: «ما الغرض من هذه الخرزات الزجاجية؟» فأجاب كالحالم: «إنها تجلب الحظ السعيد». ثم انتقل بمداعبته إلى ريشة النعام القذرة المثبتة في غطاء المبرد. ثم سألت ثانية: «والريشة هذه ـ ما عملها؟» أجاب إبراهيم بنزق: «هذه الريشة ترمز إلى القوة والسرعة والقدرة على الاحتمال التي وهبها الله لذكر النعام».

الآن عرفت كل شيء!

والتفت إبراهيم نحوي بعينه الوحيدة وقرر معالجة الموقف بمظهر من الاستعلاء. وأعلن ببرود أن نوابض السيارة قد أعطبت. والأسوأ من ذلك أن محور السيارة الأمامي مكسور. فقلت باستهزاء: «إذن لن تستطيع (النعامة البرية) أن تسير قط:» وهذا أفقد إبراهيم صبره، فرمقني بنظرة ازدراء وأبعد الخبيرين المتطوعين عن السيارة ببعض من لعناته الأصلية. فجأة انفجر البر كان الهادئ للعمل. أعاد كل برغي وعزقة وشمعة اشتعال وسلك انتزعه مساعداه. وضع «جبيرة» للمحور المكسور من دفات أحد الصناديق وشرائح صفيحة النفط. ولهذه المهمة احتاج إبراهيم أيضاً لسلك أو حبل لم يكن معنا منه سوى قطع قليلة. اضطرنا لاستعمال قميص علي وقميصيّ الاثنين (وهي القمصان الوحيدة لدى الركاب السبعة) لتجبير ساق «النعامة البرية» المكسور. وكبديل للنوابض استعمل إبراهيم بذكاء عدة قطع خشبية فوق المحور الخلفي. وبدت النتيجة رائعة ـ هل تقوم بالمهمة؟.

تخلصنا من كل المتاع الزائد حتى أكلنا الدجاجتين. وبعد استراحة قصيرة في ظل السيارة سرنا بحذر وببطء فوق الحصى القاسي الناعم بمرافقة «الأدعية والاستغاثات والتأوهات: يا الله ـ أوه ـ آه!».

وبمعجزة توصلنا بالفعل إلى الخابور حوالي منتصف الليل. عانقت إبراهيم وسحبت كل ما قلته عن «النعامة البرية».

---

(١) الرديتير.